أمـــس

كان يوما مشهودا من غير شك ، ظهرت فيه عواطف الشعب قوية إلى أقصى غايات القوة ، حزينة إلى أقصى غايات الحزن ، جلية إلى أبعد حدود الجلاء .

وكان يوما مشهودا من غير شك ، لم تستطع الظروف السياسية المصطنعة ، ولا الأوضاع السياسية المتكلفة أن تطبعه بهذا الطابع الفاتر الذى يخيل إلى الناس أن الشعب قد لها عن نفسه وعن حقه وآثر الحياة التى تجرى مطردة ، يسيرة لاجهد فيها ولاعناء ، ولا عناية فيها إلا بهذه الحاجات الزائلة التى تعرض للأفراد فى كل يوم .

نعم كان يوما مشهودا من غير شك ، اندفعت فيه عواطف الشعب الحزينة المؤمنة عنيفة لاتلوى على شيء . فأظهرت نفس الشعب كما كانت دائما صافية أشد الصفاء ، واضحة أشد الوضوح ، مؤمنة أشد الإيمان بالحق ، واثقة أشد الثقة بالفوز ، مقدرة أحسن التقدير لصدق الصادقين ، وإخلاص المخلصين ، وتضحية المضحين فى سبيل الحق والواجب والوطنية .

وإنى لأتحدث عن أمس فلا أتحدث ناقلا ، ولاراويا ، ولا مرددا للأخبار والأنباء ، إنما أتحدث حديث الشاهد الذى عاش مع الشعب هذه الساعات الخالدة ، وأحسّ مع الشعب هذا الإحساس الرائع ، وشارك الشعب فى هذا الشعور العظيم . فلست إذا تحدثت واصفا لما أحسسته أنا وتلقيته أنا من هذه النفس العظيمة ، نفس الشعب ، فليس إلى وصف هذا من سبيل الآن ، إنما أريد أن أصور هذه الخواطر التى تبقى فى النفس بعد هذه الاجتماعات الشعبية الرائعة التى تظهر فيها حياة الشعب قوية لاتغلب ، عزيزة لاتذل ، جريئة لاتخاف ، مندفعة لاترد ، بريئة من كل تكلف أو تصنع أورياء أو محاولة التكلف والتصنع والرياء .

ولعل أول هذه الخواطر وأقواها وأبقاها وأشدها إلحاحا على النفس واستئثارا بالقلب

كوكب الشرق فى ٢٥ - ٧ - ١٩٣٣

إنما هو الإعجاب بالروح الشعبى الحر فى قوته وصراحته وبراءته من التكلف والالتواء والإيمان بأن هذا الروح القوى العظيم واحد ، تختلف الظروف من حوله ولايختلف ، وتتباين أسبابه ودواعيه ومظاهره ولايتباين ، فهو هو حين يظهر لأن الشعب محزون لفقد عزيز عليه أو ضياع حق من حقوقه . وهو هو حين يظهر لأن الشعب مبتهج بمقدم عزيز عليه أو بكسب حق من حقوقه ، وهو هذه القوة التى تمثل إكبار الشعب لنفسه وإيمان الشعب بواجبه وإباء الشعب لكل ضيم ، وإنكار الشعب لكل اعتداء .

انظر فى أى مظهر شئت من مظاهر الروح الشعبى حين يودع راحلا عظيما ، أو يستقبل قادما كبيرا ، أو يحتج لأن شرا أريد به ، أو يبتهج لأن خيرا سيق إليه فستجد هذه المعانى كلها ممثلة فى هذا الروح أصدق تمثيل وأقواه . ولعل الذين يدرسون الاجتماع ويحققون أسراره ، ويحاولون أن يتبينوا خصائص الحياة الشعبية يجدون فى هذا كله مذاهب للبحث والتحليل ، ووجوها للدرس والتعليل ، ولكنى لاأريد إلى شىء من هذا الآن ، ولاأنكر فى شىء من هذا الآن ، إنما أريد أن ألاحظ ولست أشك فى أن كثيرا من المفكرين الذين شهدوا أمس يلاحظون أن من العسير جدا على الذين يتولون قيادة الشعب ويشرفون على تنظيم جهاده أن ييأسوا أو يقنطوا أو يجد الضعف إلى نفوسهم سبيلا ، وهم يريدون هذا الروح ويحسونه ويحيون بهذه النار المحرقة التى يبعثها فيهم قوية مشرقة أشد قوة وإشراقا من أن تؤثر فيها الأحداث والخطوب . وخاطر آخر حاولت أن أرده عن نفسى فلم أوفق إلى رده ، ولم استطع أن أخلص منه ، وهو هذا الذى تثيره المقارنة اليسيرة بين ماأبرق به رئيس الوزراء إلى الدبلى تلغراف منذ يومين ، وما أعلنه الشعب إلى العالم كله أمس . فالتناقض بين هذين الأمرين واضح وضوحا شنيعا حقا .

رئيس الوزراء يعلن إلى الدبلى تلغراف فى هدوء واطمئنان ، وفى جرأة وثقة أن الأمة مجمعة على الإنكار لحكم الوفد والنفور من العودة إليه ، لأنه سبيل الفوضى ، والشعب يعلن أمس إلى العالم كله فى قوة وحزم ، وفى شجاعة وثبات ، وفى يقين وإيمان أنه لايحب إلا الوفد ، ولايريد إلا الوفد ، ولايرضى إلا حكم الوفد .

ومن المحقق أنى لم أصدق الشعب أمس ، وإنما صدقت رئيس الوزراء ، ومازلت أصدقه وسأصدقه دائماحتى بعد أن يعود الوفد إلى الحكم ، لأنى واثق بأن رئيس الوزراء معصوم من الخطأ ، مبرأ من أن يقول غير الحق أو ينطق بغير الصدق ، أو يصور غير الواقع الذى لاشك فيه . فرئيس الوزراء إذا كان مصيبا حين أنبأ الدبلى تلغراف بأن الأمة مجمعة على بغض الوفد وحكمه ولاتريد إلا الوفد وحكمه . وأكبر الظن أن الشرطة قد

رفقت أمس بهذه الألوف المؤلفة ورقت لها وأشفقت عليها من إصرارها على الخطأ وإمعانها فى الكذب فسلطت عليها مضخات الحريق ليطفىء هذه النار الكاذبة التى كانت تتأجج فى القلوب ، ولترد هذه الجماعات الجامحة المخطئة إلى الاعتدال والصواب . وأكبر الظن أن هذه الألوف المؤلفة قد انتفعت بهذا الدرس واستفادت من سبل هذا النصح البارد فآمنت كما أومن أنا بأن رئيس الوزراء كان مصيبا موفقا حين أنبأ الديلى تلغراف بأن الأمة مجمعة على بغض الوفد وحكمه وتصريفه للأمور .

وخاطر ثالث لاأشك فى أنه ألح على نفوس الناس جميعا أمس وهو أن تعاقب الليل والنهار ومضى الشهور أثر الشهور ، والعام أثر العام ، واختلاف الحوادث وتتابع الخطوب لم تغير من نفوس الناس شيئا ولم تسلط على عزائم الناس وهنا ، ولم تحدث بين الناس وبين التردد فى المطالبة بالحق ، والشك فى أن المستقبل للشعب سببا من الأسباب . وكان ناس يظنون أن قرب العهد وحده هو الذى بعث الشعب إلى موقفه العظيم من موت ويصا رحمه الله .

فقد مضى على موت ويصا عام وتبعه عام آخر . وامتلأ هذان العامان بألوان الفتن والمحن . فلما مات سينوت وقف الناس من موته موقفهم من موت صاحبه ، وأظهر الناس فى توديعه ماأظهروه فى توديع صاحبه وأقام الناس أسطع الأدلة وأنصع البراهين على أن حب الشعب المصرى للحرية وحرصه عليها وإكباره لحمايتها ليس تكلفا ولاتصنعا ولافنا من فنون البدع ، وإنما هو طبيعة لم يبق إلى تغييرها من سبيل مهما تنفق فيه القوى ، ومهما تسخر له الجهود ، ومهما يطل عمر الوزارات .

ولكن أعود فأؤكد أنى مصدق لرئيس الوزراء ، مقتنع بما قال من أن الأمة مجمعة على بغض الوفد وحكمه لأنه سبيل إلى الفوضى . وخاطر رابع قد خطر للناس جميعا أمس من غير شك ، ومن الحق على الناس جميعا أن يقفوا عنده ، وأن يطيلوا التفكير فيه ، ومن الحق أن يقف عنده الأجانب عامة والانجليز خاصة ويطيلوا التفكير فيه ، فقد كان سينوت قبطيا مسيحيا ، ومن الناس من يظن ، ومن الناس من يقول إن فتنة المبشرين قد فرقت مصر أو همت بتفريقها ، ومن الناس من يتخذ هذا الفرقة المتخيلة وسيلة إلى الكيد لمصر ولكن موت سينوت أظهر أنه قد وفق كل التوفيق فيما دعا إليه من إلغاء الفروق بين المصريين وإقامة الوحدة الوطنية هذا المقام العزيز .

فقد كان المصريون[1] أمس يودعون فقيدهم العظيم ، لا لأنه قبطى مسيحى ، ولالأنه مسلم ، بل لأنه مصرى فحسب . وقد كان المصريون يحتشدون أمس في الكنيسة القبطية ومن حولها ويشرفون عليها من أعلى الدور ، وهم لايذكرون إلا أن مصر قد فقدت زعيما من زعمائها ، وأنها محزونة لفقده ، وأنها ترافقه إلى حيث أراد الله أن يستقر جثمانه ، وأنها تمر معه بالكنيسة القبطية وتدخل معه هذه الكنيسة وتقف معه عند هذه الكنيسة ، لأن شعائر دينه تريد على أن يدخل الكنيسة وتستنزل عليه فيها رحمة الله .

إذن فقد فازت الوحدة الوطنية فوزا مبينا ، وكان راحل أمس مؤسس هذه الوحدة والداعى إليها والملح فيها . فهل يعتبر بهذا أولئك الذين يذكرون الفرقة بين المسلمين وغير المسلمين ؟ وهل يفكر فى ذلك أولئك الذين يتمنون هذه الفرقة فيعلموا أنهم يتمنون مالا سبيل إليه ، ويرجون مالايبلغه الرجاء . إن بين الناس من يخلقهم الله للنفع أحياء وأمواتا ، وكان سينوت من هؤلاء الناس ، نفع أمته حيا ، ونفع أمته وسينفعها ميتا . والله وحده قادر على أن يجزيه عن ذلك أحسن الجزاء .

---

(١) كان الانجليز يعملون على إثارة الفتنة بين عنصرى الأمة ، ولكنهم بهتوا حين رأوا الجموع الغفيرة تخرج باكية وتسير فى خشوع وراء نعش سينوت حنا بك .

ثم جاء اشتراك المجاهد الكبير مكرم عبيد فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وهتاف الجماهير بحياته ضربة أخرى موجهة ضد خصوم الأمة

وكان مكرم عبيد قد سافر إلى فلسطين ، وخطب فى نادى جمعية الشبان المسلمين فكان مما جاء فى خطبته :

«إننى هنا فى نادى جمعية الشبان المسلمين أحس إحساسا صادقا أننى فى بيتى بين أهلى وخلانى . وأذكر لكم أننى قلت كلمة الايمان منذ سنوات فى حضرة زعيمنا الأكبر فقيدنا وفقيدكم المغفور له سعد زغلول ، قلت له : إننى مسيحى دينا ولكنى مسلم وطنا (تصفيق حاد) وإن هذه الرحلة المقدسة ليست فى حاجة إلى التبشير بها والدعوة إليها (البلاغ فى ١٤ - ٨ - ١٩٣١)